

رئيف خوري في عالم الانسان والكلمة !

بقلم الدكتور ميشال سليمان

أطرها مواضيع أدبية ، منبها الى خطرها الجسيم على الانسان في كل مكان ، مؤكدا أولوية وطنه في تحريك الفكر المثار بالنفس الثوري ، لدحر هيمنة الجمود في أساليب الوسائل التقليدية المعدة للدفاع عن حقوق الانسان . وكان بذلك ، الرائد الذي حوّل المسألة من صعيد المقال المنهجي ، الى منهج للقول والعمل ، يهدف الى تحقيق انسانية الانسان .

فالانسان ، عند رئيف خوري ، هو « القيمة الاجتماعية العليا ، وهو الفاية القصوى ، لا النظريات ولا الانظمة . فان هذه تشتق قيمتها من الانسان ، وليس يشتق الانسان قيمته منها » . وليس من اليسير تصوير التأثير الضمني والمباشر الذي مارسه رئيف خوري على سلالتنا ، سلالة الادباء العرب الحديثين ، بمجاهته الذعر الظلامي الذي كان ينتقص من دور الانسان ، قيمة وغاية ، فيفعل فعله الاسود في الكثيرين من مثقفي الاربعينات الاولى من القرن العشرين . فقد حمل الرسالة ، وتحمل المسؤولية ، عارفا ، في الآن نفسه ، أين يقف أعداء الفكر وأعداء الثقافة ، وأين يقف ، بالمقابل ، أصحابها وأبنائها الشرعيون ، وأين يتسلل أولئك السذنين كانوا يحاولون التفرد بالتخطيط لعالم الغد ، وبالتالي احتكاره .

وعلى هذا النحو ، وبروح من المسؤولية التامة حيال الادب والفكر ، حيال الانسان ذاته ، عزف رئيف خوري عن جادة اعتبار الادب اشكالا وعبارات تائهة في أطباق معميات البيان اللفظي ، واعتبره مهمة نضالية - القلم مسؤول اجتماعي - تسمح للمثقف بولوج عالم الانسان الخاص والعام ، وفتح سبيل تجسده بالواقع . فالادب عنده ، انفتاح على الحياة ، الحياة المتحركة المتجددة أبدا ، « تتجدد بأن يموت فيها ما هرم وتفسخ وانحل ، وبأن يثبت فيها ما ولد وأقبل على القوة والشباب » .

على ان ذلك لم يكن ليجري ، في حسابه ، وفق ايماء العفوية ، وبمقتضى واقع الحال . فهذا مما يسقط دور الفكر والادب في عملية تحويل المجتمع ، وواجب الاديب « أن يوجه الناس الى تغيير الحياة ، التغيير الذي تحتمله ، والذي يكون في الآن نفسه جمالا وخيرا ، لأن الخلق الفني الصحيح ، انسجام بين الخيال والممكن ، وبين الفني الجميل والأخلاقي الخيّر » .

ومن هنا أحب رئيف خوري الحياة . أحب جمالاتها المتنوعة في وحدة وجودها . أحبها حبا مأسويا يضارع

كلما غربت شمس يوم من أيامنا ، تنطفئ في لجة الزمن نجمة من أنصع مادة وأنبل شعاع . ولكن ضريبة الحسرة والالم ، التي ندفعها من أعصابنا لدى كل ماتم ، ليست سوى النزر اليسير بالقياس الى قيمة الانسان ، الانسان الفرد ، الانسان المتفرد ، الذي منذ ما ينبث حبلى النور بين موقع قدمه وبين عينه ، تفقد البشرية زهرة من حقلها الأتقى تربة ، والابقى في مدار صيرورتها .

ذاك ، وأيم الحق ، همّ يجوس خلال أجواء الشعور ، ليرتكز حول التخوم التي عاش عندها وحلق ، شقيق روح ، تتمثل كل رغبتى الآن في أن أحدد له في عالم الرجال ، مقياس قلبه وفكره ، عنيت : كبره . . كبرياه . رئيف خوري . . . وقد غابت عنا منه سورة اللحم والدم ، فقدنا صوته الاعلى في الاصوات ، ونظرتة الاتقى في النظرات ، فقد وجوده امكانية تسطير أقل اشارة في دنيا الاشارات المباشرة . واني لعليم بأن قياسه قد يفر على كل أصحاب المقاييس ، حتى ليصح القول بالمحال ، في مجال التقدير ، وهو مجاز .

فمن هو رئيف خوري ؟ وأي دور مثله في عالم البشر ، وفي عالم الحرف ؟ هذا الذي بقي سحابة ثلاثين عاما ، متسنا وقلة قليلة ، ذروة أدبنا العربي ، مناضلا في حومة الفكر والبيان ، وغايته التأكيد للمبصرين بالبصائر ، وللتاريخ ، على وجود انسانية القلم في القلم الانسان .

وهل يصح ، في مجال تصويره ، القول بأنه ولد في قرية « نايه » من أعمال المتن ، سنة ١٩١٢ ، وأدرك اليقين سنة ١٩٦٧ بعدما كتب وخطب ، وألف وصنف ، واستن للادب نهجا بدعا في العلمية والصوابية ، والتمرد ، وشرف الوقوف ؟

أم ينبغي التأكيد على انه ذلك الشاعر الناقد ، والاديب البصير ، الشامخ الجبين ، المرهف الكبرياء ، الذي يرى الحياة لغزا في ضمير الناس ، فيشرح ، ثم يشرح ، عندما لا يكون ثمة ما يشرح ، ويكتفي حينها بالإيحاء ، وبحسب الصمت أحيانا عنصرا من جدليته الخلاقة ؟

كل ذلك حتم وروده ، لتكتمل في الوجدان صورة ذلك الذي كان الاول في أوائل من انقدوا شرف أدبنا الحديث ، فرفع الصوت ضد الجزرة (١) ، بجعله من

(١) كان رئيف خوري من مؤسسي عصبة مكافحة النازية في لبنان .

العبادة ، باعتبارها النافذة التي تشرف منها العين على
أبعد من ديب اللحم والدم . فحقر الموت ، وسقته
صناعه اللاعبين لعبة الامل الدائم في الاستثمار
والاحتكار . وكان لا بد من أن تثقل كاهله جدوة التمرد
الماسوي ، التي يعانسي منها العالم الذي يفتض اختام
تاريخ الناس ، لتهوله في التو ، حدود آفاق الانسان ،
وحدود زمنه ، فينبري ، على مثل ايمان المرسلين ، يوقد
العزم ، والتفاؤل ، والايان بقدره الانسان ، في بناء
مجتمع أكثر عدالة ، وأكثر حرية ، وأكثر ضياء ، وبتحويل
اللام الشاربة في مياه البهجة من الاعمار ، أفرحا
واعراس نماء .

لقد أحب رثيف التراث الادبي العربي حبا خالصا
منزها عن الاثرة القومية وما يلازمها . وهذا الحب
للتراث ، يرى خلاله لآسىء مغمورة بالصدف والخزف ،
جعله ينظر الى المؤمل من اسهامه الضخم في بناء حياتنا
الجديدة ، فيعمد الى الكشف عن جوانبه الفنية بمضامينها
الانسانية والجمالية ، ويعيد درسها على أسس جديدة
تستقرىء الحادثة ، وتستنتق منها ما تعلق بفلس
التاريخ ، على ضوء مفهوم جديد مفيد ، ورؤية جديدة
نفاذة الى أعماق الحياة والانسان والتاريخ جميعا .

ولكن تلك الآلىء الخبيئة في تراثنا الادبي ، لم تكن
لتبهر رثيف خوري ، فيستكين الى بريقها ، ويظمنن الى
حاضر هذا التراث . ولهذا ، رأيناه يستحيل ناقدا
كبيراً - الناقد الكبير هو الاديب الكبير حسب تعبيره -
عميق النظرة ، دقيق الميزان ، قاطعا ، على كل صعيد من
صعدان الفكر والادب والاجتماع .

ينقد المجتمع ، فهو يريده عدالة وحبا انسانيا .
وينقد الدولة ، فهو يريدها أداة تسيير شؤون
العامه ، لا الخاصة الممتازة .

وينقد الفكر ، فهو يريده فكرا علميا عقلانيا ، محوره

ولم يكن رثيف خوري لينخدع ، في هذا ، بإمكانية
كون رجال الفكر هم وحدهم القيمينون بإيجاد معادلة هذا
المجتمع ، وذلك التحول . فهو العليم بأن العديد من أهل
العلم يعيشون في دوامة الفلق ، والتردد ، والانزال ،
والجهل النشيط ، وليس لديهم ، في أحسن احتمال ،
سوى خيط دقيق من معرفة بالحقائق الاجتماعية ،
فيحاولون القبض على الكائن في الحال ، ولكنهم لا يقبضون
بالفعل على غير الماضي . وذلك لانهم يظنون انفسهم الطاقة
الفاعلة ، وهم منها على مثل ما يكون الوهم من حلم .

فالادب ، عند رثيف خوري ، كان معرفة ووسيلة
لدفع الانسان الى ابعد من حدوده . ولكي يكون الاديب
هذه الطاقة الفاعلة ، ينبغي له أن يكون مدركا ، وان يكون
بارادة واعية منه « فيلسوفا » ، ولا سيما اجتماعيا ،
يصدر عن فلسفة ، يدرك بها ان الحياة متحركة متجددة ،
لا مستنقعة جامدة ، ويدرك اتجاه الحياة في حركتها
وتجددها ، ويدرك ان ينبوع القوة في هذه الحركة
والتجدد ، انما هو الشعب . فالى الشعب ينبغي له أن
يتوجه .

لقد كان رثيف خوري بعيدا كل البعد عن أولئك
الادباء الذين تسكرهم كلماتهم وشعاراتهم التي يلقون ،
لبعدهم عن القدرة التي تجعلهم يرون الناس كما هم ،
وتجعلهم في الوقت نفسه ، المسهمين في نضالهم . وكثيرا
ما كان يجلدتهم بسياط ملح وطرائف الجارحة ، مطلقا
دائما صيحته المعروفة الداعية الى الحب ، حب الحياة ،
وحب الناس ، والى طرح ما يثقل كواهلهم من أنيار وعبادة
أصنام . فهو بهذا محطم أيقونات ، ينحاز بثورته عن
سواه من الادباء ، في كونه منهجي التمرد ، صوال التحرك
العقلاني ، يعدل الحرية بالحياة ذاتها ، على انها صراع في
سبيل الحق ، ولا بد لجميع الناس من حوض غمارها ،
شاءوا أم أبوا ، وذلك لكي يصنعوا تاريخهم بارادة جماعية ،
ويخططوا لمستقبلهم جوا ملائما تتفتح فيه ابداعات
الانسان الواعية .

ومن هذا الشمول في النظر الى الوجود ، والى
ظواهره جميعا ، وأخصها الادب ، كانت آية العبقريّة
الرثيفية ، المثلثة في القول بأن « النظر الى وراء جزء من

دار الآداب تقدم

المسح والمرايا

للشاعر ادونيس

صدر حديثا

الثمن ٦٠٠ ق.ل

الشمس الزرى للقباه

تهلّل الجراح في أعيننا
ويرقص الانين في الشفاه
ومن سحائب الهجير في قلوبنا ...
ينسكب المطر

.....
.....

وتضحك الزهور في حديقة المساه

يا كئزي الاسير
نعمت بالظلام كي اضيء شمعتك
ذبحت ألف عمر عند بابك الضرير
قرأت ألف رقية ورقية للجن والملائكة
صلّيت للاله وابتهلت للشيطان
غطّيت بالخداع كل أعين المجره

.....
.....

وها أنا في آخر الزمان ...
أوثر أن يقتلني الرجاء كل يوم ألف مره ..
ولا أذيع قصّتك

قالت لي النجوم
- ونحن نفرس الشعاع في يبادر الندم - :
« الليل عريبد ثمل
« جراحه - مثل جراح الوهم - ليست تندمل
« من أجل هذا .. فالظلام منذ كان لم ينم
« لو يأكل الليل النجوم لاستراح »

.....
.....
حاولت أن أستوضح المعنى ..
أجابت :
« عندما ينبلج الصباح »

محمود القتريس

الاسكندرية

الانسان ، ومداره اعداده للقيام بعملية تحويل مجتمعه .
وينقد الادب ، فهو يريده عمارات تشمخ على اسس من
جمالية تعطي الناس والاشياء معنى بالنسبة الى الانسان ،
مع فنية في الاداء ، وتخلق القيم ، وتثيرا مسن المدارات
المفلقة ، والطرق المسدودة ، ومتهات المسوت والضباب ،
وتؤكد مجد الانسان .

اما سبيله الى هذه جميعا ، فأسلوب هو حقا حدث
الاشياء العربي ، موصول الاواصر بأنقى مسا في تراثنا
الادبي . تمراه ، فاذا أنت في ذوق البيان كأنما الجاحظ
وسادة القول الاول وراء كلامه . واذا أنت من البلاغة في
مثل ما هي في الكائن الحي المعافى ، أبداع وأروع ، لانها
الحياة في نموها .

ان من يقرأ رثيف خوري ، يحس بالحياة كأنها مخبوءة
بين السطور ، ويحس في الحرف رعشة دعوة الى رحلة
جديدة ، ويسري حوله ذلك الروح الخفي الذي يحمل في
أنفاسه معالم الفد . وفي هذا الجو المسحور ، تنكشف له
أعماق نفسه ، فتعترية حالة من حبور ، كأنه خرج - وهو
لم يزل - من قبضة سلطان ما يعكر عليه عين الشمس .

أما نسغ هذا الاسلوب الرثيفي ، عنيت وشائج الكلم
المنتظم عباراته ، فخيظ من ذوق رهيف مثير ، ينقلك من
حقيقة المجاز الى مجاز الحقيقة ، ملقيا المعاني في الامور
المكشوفة بما يتخيل فيها ، مرجعا القليل من الحياة كثيرا
في ضمير الارادة ، تاركا الماضي الهرم يتقهقر قارا بما
يخلد من وصفه ، جاعلا المؤلم والبشع من الحياة ،
يتكشف عن لذاعة يجعلها فعل النضال . ومدار ذلك كله ،
على ايتاء الفكر جذوة الشفافية ، التي هي في ذاتها ،
جذوة نضاحة بعناصر تربتها جميعا . فهذا الفكر خمير
طبيع ، متكيف ، لا يعرف اليباس ، ولا يبتغي ادراكا مجردا ،
ولا صورة على مثاله ، كأنه على يقين ان ليس في الوجود
وجود مطلق ، ولا وجود قائم بذاته ، وانما حالات وصور
تتحول ، وتتكيف ، بمقدار ما يثور فيها قلق ، أو يعتمل
نازع من تباين .

قلت :

لقد غابت من رثيف خوري سورة اللحم والدم .
فقيل : مل المقام ... ، وقيل : استراح فأراح .
والحقيقة ، انه ما غاب ، ولن يصمت ، وما مل ، ولن يخلد
الى سلطان سكينه . وها هو ، في كتابه « الادب المسؤول »
تنشره « دار الآداب » ، وفي أخوة له تليه ، يخلق بارادة
أنوف فوق تخوم الادب العربي ، غارسا في صدور الاجيال
الصاعدة ، أغراس حياة أبت ان تجذر في غير تربة الحرية ،
ثم شمخت ، فأورقت ، وأثرت فنا يعاف الاطر الحديدية ،
وينهل من نبع العطاء الانساني . (✕)

ميشال سليمان

(✕) مقدمة كتاب « الادب المسؤول » تأليف رثيف خوري ، يصدر
هذا الشهر عن « دار الآداب » .